
THE SHOES



FERDINANDO

رجل GILLETTE، الأحذية

ما الفرق؟

كان ذلك في 10 نوفمبر 1984، الساعة 9:30 صباحاً. فتح أبي باب غرفتي، وأدخل الضوء، وقال: «ناندو، الكارابينيري عند الباب يسألون عنك. أيّ خراء فعلت؟»

قلت: «بابا، أتمزح معي؟ دعني أنام. عدت متأخراً هذا الصباح. ميلانيا حطمتني أمس.»

«ومن تكون ميلانيا هذه بحق الجحيم؟ ارفع مؤخرتك، اغسل وجهك، البس ثيابك، واخرج إلى هنا. كلهم واعرف ماذا يريدون.» «طيب، أنا آت.»

تحقق المساعد بوسكا ونائب العريف باتانيه من هويتي ثم قالوا لي: «إن لم تلتحق في 17 نوفمبر بمدرسة القوات المدرعة فيراري أورسي في كازيرتا لأداء واجب الخدمة العسكرية، فستصدر النيابة العسكرية أمراً بالقبض عليك مع أول ساعات صباح الغد. سنأتي ونأخذك ونسوقك إلى السجن.»

نظرت إليهما وقلت: «أتريدان قهوة؟ استيقظت للتو. سأعود حالاً فتحكيان لي النصف الثاني من هذا الفيلم. أنتما ظريفان، لا بد أن أعترف.»

أشار أبي للعسكريين بأني فاقد العقل، فتمهلاً. ولما عدت من المطبخ سألت إن كان يُفترض أن تكون قد وصلتي بطاقة استدعاء. كان معهما إيصال موقع من أمي، وكانت في عملها في تلك اللحظة بالذات.

ومن غير أن أضيع ثانية أخرى، اعتذرت عن سوء الفهم وأكدت لهما أنني سأكون هناك في اليوم المحدد، مستعداً لارتداء تلك الثياب التي تلبسها اثني عشر شهراً حتى تنتهي صلاحيتها كالزيادي.

تجهّزت. وليلة رحيلي ودّعني أبي بتلوّحة من ذراعه. ولما طلبت منه أن يضيف شيئاً إلى ليراتي القليلة — ما يعادل عشرة يورو اليوم — قال: «دبر أمرك بها. ستقبض 60 ألف ليرة في الشهر. هذا كل ما ستعيش به.»

تظاهرت أمّي بالنوم ولم تُجب. وفي الساعة 11:45 ليلاً جاء صديقي أوريستي إلى بيتي بسيارة أيبه من طراز Fiat 850 — وكان أبوه يعمل في السكك الحديدية — وأوصلني إلى المحطة. لم أفهم يومها تصرف والديّ. بدا لي ما فعلاه عادياً. كان ذلك درسي الحقيقي الأول.

وصلت نابولي في 6:10 من صباح اليوم التالي، ثم ركبت قطاراً إلى كازيرتا. في المحطة سألت عن الطريق إلى الثكنة ومشيت ثلاثين دقيقة أخرى حتى البوابة. قدّمت نفسي إلى الضابط المناوب فقال: «متأخر آخر، دفعة 9/84.» كنت أدخل بيتاً جديداً. وسأغادره بعد سنة.

أرسلوني مباشرة إلى مخزن المهمّات. سلّموني حقيبة ظهر، وزوجين من أحذية القتال — واحداً قصير الساق وآخر طويلها — وحزاماً، وجوارب صوفية، وقصعتين، وكوباً، ومطرّة، وعلبة فولاذية للأدوية، وحذاء رياضياً، وبزة ممّوهة، وقبعة، وبزة رسمية، وطربوشاً لللبس داخل الثكنة، وسروالين داخليين خارجين لتوهّما من الحرب العالمية الأولى، وقمصين داخليين من الصوف بكُمّين طويلين. ابتسمت، ولم أكن أدرك بعد كم سينقذ ذاك القميصان حياتي.

كان الأمر أشبه بأن تكون داخل فيلم. خرجت وأنا أصفر، فأوقفني ضابط قادم نحوي وعاقبني بيومين لأنني لم أوّد له التحية. وشاء القدر أن أحبس في سريري ثماني وأربعين ساعة، لا أرى أحداً.

وفي صباحين متتاليين كانت خدمة المراحيض من نصيبي: تنظيف دورات المياه بعد أن خرى فيها 280 رجلاً — ولم يفلحوا كلهم في إصابة الهدف. لم أثمر. كانت تلك أيضاً خدمة عسكرية. كان عليّ أن أرى وأتعلّم أن الناس لا يخروّون جميعاً باللون نفسه، وأن الأمر لا يعود إلى الطعام وحده.

بعد أسبوع جاء يزورني رفيق سلاح من ناحية قريبة من بلدتي. اسمه فرانكو نيكولو، دفعة 5/84. كان في الحياة المدنية مندوب مبيعات لعلامة أحذية ذائعة الصيت في العالم. استلطفني. وبعد

أربعين يوماً تمكّن من أن يحصل لي على إجازة ثماني وأربعين ساعة، فطرنا معاً إلى الديار في سيارته. ثماني ساعات على الطريق، لكنها كانت تستحق.

في البيت سألتني أمي إن كنت هربت. كانت تتوقع أن ترتاح مني زمناً أطول بكثير. وعند منتصف ليل الأحد مرّ بي فرانكو وبدأنا طريق العودة.

وما إن ركبت حتى طلب مني أن أمسك بين ساقيّ دجاجة نبيذ من خمسة لترات. كانت للمساعد الذي يرأسه — وسيلة ليبقي في حظوته. غير أننا حين بلغنا الثكنة كنا سكرانين. فسجّلنا أنفسنا مريضين في الحال ليومين.

ثم هدّد ضابطُ فرانكو على الملأ. فردّ فرانكو: «ما إن نضع قدماً خارج الثكنة حتى أطلق عليك النار.» فأمر الضابط باعتقاله وإحالاته إلى المحكمة العسكرية. وحُكم عليه بستين يوماً في السجن العسكري.

لم أره هناك بعدها قط، لأنني نُقلت إلى مكان آخر. لكن حين انقضت تلك المدة، كثيراً ما كنا نلتقي قرب العمل ونأكل معاً، مستعدين نبيذ المساعد.

كان قد افتتح متاجر أحذية بالخدمة الذاتية، وكانت تجارته رائجة. وكلها مررت لأشتري شيئاً عوملت معاملة الملوّك — خصم فوق خصم. لكنني وحدي كنت أعرف أنه بائع أمهر مني. لم أنطق بكلمة قط. كنت قد صرت رجل Gillette.

مركز تدريب المجنّدين

بدأ التدريب: تفكيك بندقية وإعادة تركيبها، ثم أخرى، ثم مسدس. وتنظيفها. مسيرات، وجري، واستراحات، وقاعة الطعام، وخدمات أساسية في أرجاء الثكنة، ومطعم الجنود، ومطعم ضباط الصف، ونادي الضباط.

كان عيد الميلاد، التاسعة ليلاً، والبرد قارس. كان ذاك القميصان الصوفيان طوق نجاة، خصوصاً حين بدأنا نوبات حراستنا الأولى. ثم كافؤنا بخمسة عشر يوماً في حراسة مستودع البارود. صار الاغتسال سراً. وفي داخل سروالك لم تعد تميّز الطفيلي من الوسخ، ولا الشامة من القملة.

لم أستهلك أحذية كثيرة قط. امتلكت القليل جداً منها، وحاولت دائماً أن أصلح ما عندي. كانت تهمّني الوظيفة لا المظهر. تستطيع أن تركل مؤخرة من تشاء بأي حذاء تشاء، ولن يرى أحد إن كان يحمل توقيع مصمّم.

اليوم تطلب مني زوجتي أن نتوقف عند متجر أحذية بالخدمة الذاتية. أتذكّر أن ذلك المتجر كان يوماً لفرانكو، رفيق سلاحي، وندخل.

مرّت أربعون سنة. وما زال كما هو — الترتيب نفسه. وبينما تختار زوجتي أحذيتها، تناولني العلب لأمسكها قبل أن تتجه إلى المقاعد لتجرّبها.

في الأثناء تسأل امرأة أين قسم النساء، فأدّلهما على الطريق. ويسأل رجل إن كان حذاء بعينه متوافراً بمقاس 41، فأقول له إن ذلك المقاس نفذ. وتطلب رأيي امرأتان تجربان أحذية، فأقول لهما إنهما تبدوان رائعتين في تلك الأحذية.

زوجتي لا تلاحظ شيئاً. ومنذ عشرين دقيقة، ومن غير أن أنتبه حتى، صرت أنا بائع المتجر. الجميع يقصدونني. أردّ على الرجال ببرود وسوء، أما النساء فينلن كل إعجابي باختياراتهنّ.

يزدحم صندوق الدفع ويكاد يتعطل. وصاحب المتجر لا يفهم ما الذي يجري. ندفع ثمن أحذيتنا ونتجه إلى الخروج، لكنني أسأله قبل ذلك إن كان يعرف فرانكو. يقول: «نعم، إنه أبي.» «إذن بلّغه سلامي.»

وبينما نخرج، تشير النساء إليّ ويلوحن. وزوجتي ما زالت لا تلاحظ شيئاً.

المشكلة تأتي بعد نحو ساعتين، حين تريد ابنتي أن تعود إلى متجر الأحذية. وهناك ينتحي بي ابن صاحب المتجر جانباً ويقول: «يا سيد فريغا، لم أقل شيئاً عند صندوق الدفع. لم أشأ أن يسمع الزبائن فيثيروا جلبة. تعرّض أبي لحادث مروّع في 2021، وفي 2023 فارقنا.»

يؤسفني ذلك حقاً. أحكي لابنه حكاية عشتها مع أبيه، فيعانقني بقوة والدموع في عينيه.

تشتري ابنتي حذاءها، وتدفع، ونغادر. وبينما يودّ عنا يهتف الابن: «تعال زُرني. أحتاج إلى بائعين
مثلك، يعملون مجاناً.» فأقول: «لم تُنزل كتي، أليس كذلك؟»

يتسم. وتمضي الحياة.

فرديناندو